

إشارات القرآن الكريم إلى المسؤولية



الشخص المسؤول أو ذوالمسؤولية، هو الذي يتعرض للمسائلة عن عمله، أي يتحمل تبعات عمله، فالمسؤولية - لغةً - هي حال أو صفة مَن يُسأل عن أمر تقع عليه تبعته، وألقى المسؤولية على عاتقه: حَمَلَهُ إِذَا هَا.. وإذا وصفت المسؤولية بـ(الأخلاقية) فإنَّها تعني التزام الشخص بما يصدر عنه قولاً أو عملاً.. وإذا نُعتت بـ(الجماعية)، فيُراد بها الالتزام الذي تتحمّله الجماعة.. وإذا قيل (مسؤولية مشتركة)، فيفهم منها المشاركة في قرار يُتخذ وبما ينجم عنه.. وقولنا (مسؤولية وطنية) يُقصدُ بها مهمة وطنية ذات طابع له أهلية ومكانة.

ونخلص من التعريف اللغوي إلى المفهوم الاصطلاحي بأنَّ المسؤولية هي ما يكون به الإنسان مُلزماً، ومطالباً بعمل ما أو عدّة أعمال، وهي ما يوجبه على نفسه خضوعاً لشريعة أو لقانون أو لعُرف مجتمعي عام.

ويمكننا التقاط إشارات القرآن إلى المسؤولية من خلال عدد من الآيات المُعبّرة عنها:

1- مسؤولية العمل:

قال تعالى: (وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى الْاٰلُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) (التوبة / 105).

وبالتأكيد لا يُراد هنا إلا الصالح من الأعمال، الذي فيه نفع للناس، وتبقى آثاره ممتدة حتى بعد رحيل الفاعلين به أو المؤسّسين له، قال عزّ وجلّ: (وَنَكَتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلٌّ شَيْءٍ اٰحْصٰىنَاہُ فِيْ اِمَامٍ مُّبِيْنٍ) (يس / 12).

2- مسؤولية العقل والحواس :

قال جلّ جلاله: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّهُ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُورًا) (الإسراء / 36).

ومسؤولية العقل أن يتلقّى وينتج الخير، ويعاقب السيّئ والشرّ، كما أن مسؤولية الأعضاء (الجوارح) أن تكون مسخرة في النفع والإفادة والصلاح، وفي الإجمال لطاعة الله تعالى في خدمة الناس.

3- المسؤولية الفردية (الشخصية):

قال عزّ وجلّ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْزَفُسُكُمْ لَا يَصُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (المائدة / 105)، أي إن كلّ إنسان مُحاسب بعمله، والمطيع لا يؤاخذ بذنوب العصاة، إذا أمر بالمعروف حتى ولو لم يأخذوا به، ونهى عن المنكر حتى ولو لم ينتهوا عنه.. المهم أنّه يُمارس مسؤوليته في الذود عن حَمَى الله وحرماته والدفاع عن قيمه ودينه ورسالته.

4- مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال سبحانه: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) (آل عمران / 110).

وغاية هاتين الفريضتين المتلازمتين المتكاملتين هي السعي لإصلاح المجتمع وعدم تركه ينهار أو يستسلم للفساد والخراب والظلم.. وكما سبقت الإشارة، فإنّ حدود هذه المسؤولية المركبة ما عبّر عنه القرآن بقوله تعالى: (مَعَذَرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ) (الأعراف / 164).

5- المسؤولية.. إقامة الحجة:

قال تعالى: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا حَفِيفًا إِنْ عَصَاكَ إِلَّا اللَّهُ وَرَسُولُهُ) (الشورى / 48).

والإعراض هنا هو رفض الهداية، ولذلك كانت مسؤولية الرسول 6 هي الرقابة على الأعمال: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَمًا وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (البقرة / 143)، وإتمام الحجة بتبليغ الرسالة: (لِيَذَّبَ لَا يَكُونِ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) (النساء / 165)، وبالتالي فإنّ الملائكة إذا سألت المتخلفين عن مسؤولياتهم: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) (الملك / 9)؟ قالوا -بحسب القرآن-: (بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا) (الملك / 19)، أي إنّ الإنسان يعترف بتخلّيه عن قيامه بالمسؤوليات المناطة به على الرغم من وصولها إليه ومعرفته بها من خلال الأنبياء، ومن ثمّ فإنّ حجة الله قاطعة: (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) (الأنعام / 149).

6. اللامبالاة منافاة للمسؤولية:

قال جلّ شأنه: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْزَفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (الحشر / 19).

نسوه بنسيان مسؤولياتهم التي كَلَّفَهم بها ، وأنساهم أنفسهم بأن أوكلهم إلى أهوائهم التي تسوقهم للخروج عن دينهم.

7- الحرّية تستبطن المسؤولية :

قال جلّ جلاله : (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ مَرَّجِعُكُمْ فَيُنْذِبْ ذُنُوبَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الزمر / 7) ، إذ كلّ حُرّ مسؤول بقدر حرّيته .

8- القيامة يوم الحساب عن المسؤوليات :

قال عزّ وجلّ : (وَقِفُّهُمْ أَيْنَهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) (الصفّات / 24) .

والسؤال عام شامل للجميع سواء القيادات أو القواعد : (فَلَنْدَسُأَلَنَ السَّادِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنْدَسُأَلَنَ الْمُرْسَلِينَ) (الأعراف / 6) .

الأنبياء والرّسُل والأئمّة والقادة يُسألون عن أدائهم لوظائفهم الرسالية ، والناس أو القاعدة يُسألون عن مدى التزامهم بمسؤولياتهم التي عرفها الله تعالى لهم من خلال كتبه (رسائله) وأنبيائه وأوصيائه ، قال تعالى : (فَوَرَبِّكَ لَنْدَسُأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الحجر / 92-93) .